تراث وآثار

إحياء الشعائر القديمة... على قمة حرمون

يقوم مئات المؤمنين بالترحيب ببزوغ الفجر، يتوافدون إلى أعلى قمة جبل حرمون في الرابع من آب، بعضهم يعطي للزيارة طابعاً دينياً مسيحياً في عيد التجلي، ولكن التقليد يرجعها إلى الحضارات القديمة وإلى عبادة الشمس

حرمون ـ **كامل جابر**
بيروت ـ **جوان فرشخ بجالي**

الزائرين يهللون للشمس من أعلى قمة جبل حرمون في عيد التجلي

في الرابع من آب، يَؤم المؤمنون بالمئات قمة جبل حرمون (1814 متراً عن سطح البحر). يسيرون تحت جنح الظلام، في مجرى المياه والتلال الوعرة مرتدين ثيابهم الدافئة لتحميهم من صقيع الليل القارس. يصلون القمة قبل الفجر، يتربعون على الأرض وينتظرون ولادة شمس النهار الجديد الآتي من الأفق البعيد خلف الصحراء. وما إن تبدأ أشعة الشمس بالبزوغ حتى تصدح الأنغام والتراتيل الدينية من أعلى الجبل لاستقبالها ومشاهدة بداية نهار جديد ورحيل الليل في آن واحد. نصف ساعة «سحرية» يعيشها زائرو الشمس في أعلى جبل حرمون كفيلة بإعادة الحياة إلى تقاليد وشعائر دينية عمرها آلاف السنين.

ففي الديانات القديمة، ترمز مشاهدة ولادة نهار وأفول ليل إلى التحوّل من مناخ الشتاء البارد إلى الصيف الدافئ، والانتقال من الموت إلى الحياة. وهذا ما ذاق طعمه «زائرو قمة حرمون» الذين عاشوا الصقيع خلال مسيرتهم، ثم عرفوا دفء النهار مع شروق الشمس. بالنسبة إلى الزائرين المؤمنين إنه

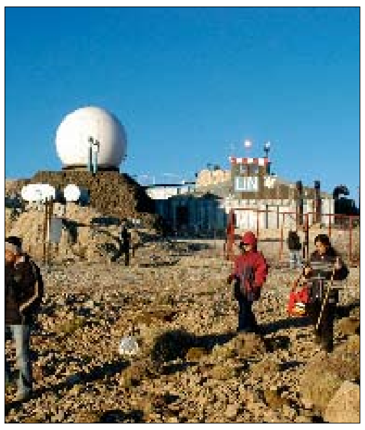

التحسس المعنوي للحظات «التجلي» التي عاشها المسيح قبل ألفي سنة هناك، قرب إحدى التلال. ذلك هو التفسير «المسيحي» لخطى هؤلاء الزائرين الذين يعيدون في الواقع بخطاهم وتأملهم للشمس، عربون الحياة لعادات وتقاليد الديانات التي سبقت المسيحية بكثير. فمن المعروف تاريخياً أن الشعائر الدينية والذبائح والنذور كانت تقدم إلى الآلهة عند أعلى الجبال. ولو كان بين الزائرين علماء آثار مختصون بتوارث التقاليد لربطوا بين بعض تلك الشعائر التي قام بها المشاركون، وتلك التي يرد ذكرها في الكتب القديمة عن عبادة الشمس وتحول الطقوس في الحضارات الفرعونية إلى السومرية والفنيقية.

ومما لا شك فيه أن تلك الزيارة، التي هي الثانية منذ تحرير المناطق الجنوبية التي كانت تقع تحت الاحتلال الإسرائيلي عام 2000، ليست الأولى من نوعها على قمة جبل حرمون. فالمعالم الأثرية التي يعرفها السكان، والتي لا تزال تعدّ مقدسة منتشرة فوق السفح. فهناك مثلاً «صخرة التطواف» التي بقي الناس يؤمّونها ويقدمون النذور عند أسفلها إلى أن منعتهم عن ذلك الحروب والاحتلال. وقرب الصخرة هناك المغارة ذات الرمزية التعبدية، إذ يتوسطها عمود صخري يربط قعرها بسقفها «دلالة على ارتباط الأرض بالسماء» كما يقول بعض الزائرين. قرب المغارة معبد يطلق عليه سكان المنطقة اسم «معبد شبيب»، والمعروف أنه الأعلى في الشرق الأوسط. ولكن للأسف ما من دراسة علمية تحدد تاريخ بنائه أو تعطي وصفاً تفصيلياً لشكله الهندسي... مما يشرّع الباب أمام النظريات عن أصل التسمية والديانة القديمة.

ولكن زيارة المؤمنين إلى قمة جبل حرمون لم تكتمل، إذ يُمنع عليهم دخول المغارة والوصول إلى المعبد. فقوات «الأندوف» التابعة للأمم المتحدة قوّضت على مدى سنوات انتشارها في أعلى قمة حرمون معظم المعالم الأثرية تحت رعايتها. فأتت الأسلاك الشائكة والتحصينات المعقدة، لتفصلهم عن المعالم «المقدسة» داخل حرم مركز «القوات الدولية» الواقع في منطقة تقاطع دولية بين لبنان وسوريا وفلسطين. وتعبيراً عن موقف «المؤمنين» والزائرين «السلمي» تجاه سلبية موقف جنود الأمم المتحدة، يتوجه بعض الكهنة وخَدَمة الرعية الأرثوذكسية في منطقة راشيا، نحو بعض صخور الموقع، خارج تحصينات «الأندوف» فيتركون هناك شجرتي أرز، وحمامتين بيضاوين، «رسالة» إلى المتحصّنين في الداخل: إن قاصدي قمة الجبل، على مختلف مللهم ومناطقهم، هم مسالمون ويقومون بمهمة إيمانية واستطلاع تاريخي ليس إلا.

ويؤكد الباحث في علم الاجتماع والآثار منير مهنا «أن قوات الأندوف لا تراعي القيمة المقدسة للموقع، فقد أقامت أخيراً محرقة للنفايات عند التخوم الشرقية للمعبد حيث الصخور التاريخية التي يتكون منها، وراحت تحرق نفاياتها التي ينبعث منها دخان أسود كثيف بات يشوّه الصخور الحاملة أسرار التاريخ والقداسة منذ أقدم العهود».

الزيارات السنوية لقمة حرمون، التي ستصبح تقليداً في مناسبة «عيد التجلي» (عيد الرب)، تمثّل دافعاً للمئات من اللبنانيين والأجانب، للتعرف إلى إرث هذا الجبل الذي كان قد شهد معارك ضارية جرت في حزيران 1967 وتشرين الأول 1973 التي تركت أثرها البالغ في محيط الموقع الأثري. فجدران «قصر شبيب» كانت هي الأخرى هدفاً للنهب الإسرائيلي، فيما تكوّن مئات القذائف والصواريخ والآليات والمروحيات المتفجرة والمتناثرة، متحفاً حربياً ميدانياً «يقتل» من طابع الجبل التاريخي الديني المرحّب بالحياة وضوء النهار.

آخر إسكافي في الزوق يخبر عن المهنة

زينة خليك

«لولا الإسكافي... لمشيت حافي»، مقولة كانت سائدة في لبنان قبل انتشار معامل الأحذية، وكانت مهنة الإسكافي رائجة جداً في سوق زوق مكايل القديمة، المحلة التي كانت تصحو وتنام على مشهد الإسكافيّين الذين اشتغلوا في صناعة الحذاء العربي، حذاء يتميز بـ«قطبه الخفيّة». هذه التقنية في التصنيع أتقنها حرفيو الزوق، فكانوا يخيطون الحذاء ثم يقلبونه بشكل يخفي «القطبة». وبقيت الحرفة رائجة إلى أن جاءت الحرب العالمية الأولى، بين 1914 ـ 1918، وضربت المجاعة البلاد، وأدت إلى وفاة ثلث سكان الساحل اللبناني. وبالطبع، لم يسلم إسكافيّو الزوق من ذلك الواقع. فكان عددهم يتجاوز 150 في حينها، ولكن كثيرين منهم قضوا جوعاً، واختار آخرون الانتقال إلى ديار الغربة.

وحده «الختيار» وديع عودة قرّر أن يبقى وفيّاً لمهنة ورثها «أباً عن جدّ»، إذ إن تقاليد اختيار الحرفة منذ الصغر كانت كافية لإصراره على البقاء فيها. يبدو هذا الرجل في العقد السابع، وما بقي من شعره غطته خصلات الزمن البيضاء، وعلى وجهه تظهر علامات التعب، الذي يرده إلى مهنة احترفها منذ 58 سنة.

في محلّه المتواضع الذي يعج بالقطع البسيطة، يستقبل عودة الزوار، يكرر الـ«أهلاً وسهلاً» وهو يحمل «عدّته الأثرية»، رأس ماله الوحيد في الحياة، ويروح يشرح أهمية كل قطعة فيها. على طاولة خشبيّة أكل عليها الدهر وشرب، يعرض عدداً من أزواج الأحذية، ومقصّاً للخيطان، وسكّيناً لقصّ الجلد وكمّاشة لشدّه، ومجموعة من الأربطة الملوّنة، و«شاكوشاً» لدقّ النعل، وماكينة خياطة الأحذية.

تبدأ حكاية «الختيار وديع» منذ كان في الثانية عشرة من عمره، اصطحبه والده أنطون إلى المحلّ، فكانت بداية عشقه للمهنة التي أذاقته الأمرّين، والتي هي بالنسبة إليه مجهولة التاريخ، فـ«هي صناعة قديمة قِدَم تاريخ البلدة، بحسب شهادة كبار المسنّين... وقد أطعمت أجيالاً من العائلات طوال عقود خلت». وبخبرة من عرف أسرار المهنة بدأ شرحه: «أصنّع الحذاء على مراحل، والعملية تتطلّب صبراً، إذ أجلس أحياناً 12 ساعة من دون أن أتحرّك من مكاني. بداية، أنفّذ الموديل على الورقة ثم أضع النعل ومن فوقه الضبان، قبل أن أخيط الحذاء، في الماضي، حين كانت الصحة تسمح، كنت أخيط الحذاء بيديّ، أما اليوم فأصبحت أتكّل على الماكينة». ويكمل، «أفصّل القماش، وأدرزه على الماكينة ومن ثم أضعه على قالب مصنوع من الخشب، وأعتمد على وضع الصمغ المستورد من إيطاليا على النعل، وأتركه ليجف. بعد ذلك، أثبّت الكعب باستخدامي خشبة متّصلة بقطعة حديديّة، أضع فيها الحذاء لأدقّ المسامير. ويبقى «الجلخ» الذي حلّ مكان ورقة الزجاج التي كانت معتمدة سابقاً لـ«حفّ النعل». وفي المرحلة النهائية يأتي الصباغ الذي يُطلى به الحذاء بحسب رغبة الزبون.

ويخبر «الختيار» عن أسرار وأيام عز المهنة التي تكثر الحكايات عن إتقانها من جانب إسكافي الزوق قبل الحرب العالمية الأولى. فيشاع مثلاً «أن أحد الرهبان سافر إلى إيطاليا منتعلاً «مشّاية» من صنع الزوق، وهناك أعجبتهم كثيراً طريقة الخياطة، فاخترعوا الماكينات لهذه الغاية. «ولكنهم لم يعرفوا أن السرّ يكمن في القطبة المخفيّة»، يقول عودة ضاحكاً. سر بالطبع لا يزال الختيار يحتفظ به لنفسه، ولكنه يرفض أن يورثه لأحد، مع العلم بأن المهنة في الزوق هي على طريق الزوال، فهو آخر من يحترفها. ولكن «الختيار» يصر على «أن الحياة علمته أن يلبّي رغبة من يطلب تعلم المهنة، فحرام أن يتحمّل همومها».

سنة لإنقاذ بومبي

أكثر من مليون ونصف مليون سائح يزورون جزيرة بومبي كل سنة. فالمدينة الرومانية التي دمّرها البركان فيزوف قبل 2000 سنة، تُعدّ من أهم المواقع في العالم، ولكن معالمها الأثرية قد بدأت تتفتت وتتكسر. بعض السياح لا يتردد في نشل جزء من الجداريات «للذكرى»، ما ساهم في تفتت قطع الفسيفساء على الأرض. هذا بالإضافة إلى أن الجدران المبنية من الطين قد بدأت تتآكل بسبب الأمطار والتلوث... فوضع المدينة قد أصبح حرجاً جداً، مما دفع بالحكومة الإيطالية إلى اتخاذ إجراءات قاسية للمحافظة على بومبي. الموقع مقفل لسنة كاملة، سيجري خلالها ترميم المدينة وتحصينها «من غزو السياح»، والتأكد من أن المعالم ستصمد آلاف السنين. ولإنجاح خطة العمل هذه، كلفت الحكومة الإيطالية حاكماً سابقاً لمدينة نابولي بالمهمات، وأعطته صلاحيات تسمح له بتخطي البيروقراطية الإيطالية، والعمل مع القطاع الخاص الذي قد يدخل إلى المشروع من باب المستثمر. ورشة بومبي جديدة على كل الصعد.